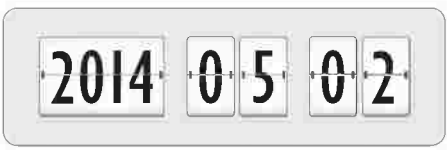


قامت قناة 60 دقيقة بعرض مقابلة معي أنا ومع رئيس الجمهورية أوباما في العشرين من كانون الثاني/يناير، كانت تلك إذاعة الرئيس الأولى مع عضو في إدارته. بحماسة كال المديح لأدائي، مازلت أذكر جيدًا ما قاله: «ستدخل هيلاري التاريخ بوصفها إحدى أروع وزراء الخارجية الذين سبق للولايات المتحدة أن خبرتهم». كلامه أرضاني، وكدت أصفح عن فوزه بالرئاسة بدلًا مني.

أفاد بأن العلاقة بيننا كانت مريحة جدًّا، ولم يكن تجاوز معارك حملة 2008م التمهيدية صعبًا، وحين سأل عن صحتي، قلت له: «مازلت أعاني تأثيرات سقوطي على رأسي وإصابتي بجلطة، إلا أن الأطباء يقولون إن ذلك سيتراجع، أتطلع إذن، إلى العودة إلى العمل». لم أتطرق إلى الأوقات التي قضيتها ليالي كاملة مسكونة بهاجس التعافي الكامل، ومتى.

بعد يومين، عقدت اجتماعي التاسع والخمسين والأخير لوزارتي في قاعة البلدية، شعرت بقليل من الأسى.

سألتها: قليل من الأسى يا هيلاري؟!

أذعنتْ وقالتْ: حسنًا، ربما الكثير من الأسى، كذلك في اليوم نفسه وافقت لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ على تسمية الشيخ كيري بالإجماع، وثبَّته المجلس بأكثرية (94) صوتًا مقابل (3) أصوات، في خطابي العام الأخير يوم 31 كانون الثاني/يناير أمام مجلس العلاقات الخارجية، أعدت طرق موضوع (القوة الذكية).

قلت إن الحاجة تدعو إلى وجود بنية جديدة لتطوير العلاقات في عالم متغير، وأضفت كلامًا من قبيل: «حقًّا، نحن الأمة الأساسية، ليس هذا شعارًا فارغًا للتباهي، بل مجرد اعتراف بدورنا الحاسم وبالمسؤوليات الهائلة التي نواجهها في عملية التنمية المتواصلة للجنس البشري، ذلك هو السبب الكامن وراء وقوع المحافظين في خطأ قاتل، إنه السبب الكامن وراء حتمية بقاء الولايات المتحدة الدولة القائدة في هذا القرن، حتى وإن كنا نتقدم على مسارات جديدة وربما مجهولة».

يومي الأخير وزيرة كان الأول من شباط/فبراير عام 2013م، حين التقيت أوباما لأقدم له كتاب استقالتي، تعانقنا وبكينا قليلًا، قال: «أشياء كثيرة خضناها معًا، وباتت الولايات المتحدة ومعها العالم أفضل جراء ذلك». لاحقًا أطلقت ملاحظاتي الوداعية في لقاء موظفي مقر وزارة الخارجية.

تلك هي صورة مدة اضطلاعي بمهام وزارة الخارجية إلى حد كبير، أيتها الدكتورة. يطيب لي أن أقيِّم ما قمت به من عمل بالنسبة إليك كما بالنسبة إليَّ أنا، هل ستمدين لي يد المساعدة على هذا الصعيد يا دكتورة؟

أومأتُ، مسحوقة تحت وطأة هول المهمة التي كانت تكلفني بها، لم أكن أطمح إلى ما هو أكثر من استيعاب ما كانت تتحدث عنه.

وحين استعدت القدرة على الكلام قلت: أنا لست سياسية يا هيلاري، ولست كما بات الآن مؤكدًا أنك تعرفينني، واسعة الاطلاع على السياسة، ما أستطيع أن أفعله هو تزويدك بأصدق رأي يمكنني تشكيله.

ابتسمتْ وقالت: ذلك هو ما يستطيع كائن من كان أن يطلبه، فلنبدأ غدًا.

أجبت: بالطبع.

لم يكن نومي عميقًا تلك الليلة.